هم الاهـــل : لا مستـــودع السر ذائع
لديهـــم ، ولا الجانـــي بمـــا جر ، يخذل

لنقارن هذا التصور بابيات نظمها معين بسيسو قبل ١٩٥٢ :

ايـــن شعبـــي ؟ لقـــد تذكرت اني
لي ديـــن في عنقـــه ، لي عمر
ايـــن انقاســـه تحطـــم قيدي
ايـــن ثاراتـــه ، امـــا لي ثار ؟

فنشاهد الشاعر يندد بتخاذل قومه ويعرض بأخلاقهم . ويمكن ان نمضي في صور المقارنة الى ابعد حد ، مع التوسيع اللازم للمشهد الاخلاقي . فقد رأينا معين بسيسو يمجد صمود الشاعر ضد مغريات السلطة وضد التعذيب ، فأي شيء هذا اذا لم يكن هو ذاته الفخر الذي افتخره الشنفرى بنفسه حين ذكر خلوه من الجشع ، الى الزاد واستغناءه عن صحبة قومه الجبناء ، بصحبة فؤاده الجسور وسيفه الصقيل وقوسه المتينة ؟

لقد نشأ شعر الصعاليك ، ومجتمعهم ، خارج المؤسسات فجاء ضدها . ولذلك نرى شعر معين بسيسو صداميا في الشكل والمضمون : انه لا يريد ان ينتمي الى الامة بل يريدها ان تنتمي اليه ، لذلك لن يصبح عربيا الا اذا اصبح العرب فلسطينيين — دون ان تحمل هذه المقولة اي معنى شعوبي ، الا بمقدار ما يكون الشنفرى او عروة بن الورد او سليك بن السلكة شعوبيين ؟

ومثلما اننا لا نجد في شعر الصعاليك صورة مفصلة متكاملة لعالم افضل ، بل نجد رفض الواقع القائم وهجرانه ومحاربته — اي نجد الممارسة تغلب على التصور ، كذلك فاننا في شعر معين بسيسو لا نجد يوتوبيا ولا دعوة اليها — شكرا لله — بل نجد ممارسة نضالية داخل الشعر وخارجه ، ممارسة هدامة ، تنقض البناء الشعري مثلما تنقض البناء الواقعي : حتى فلسطين لا تتجلى الا عذابا ومعاناة في سبيل فلسطين :

للذي بعدي فلسطين : امرأة
وانا لي الشهداء
كلما تنتابني الحمى ادواي بالدماء
الدم الداء وما منه شفاء
للذي بعدي السموات : امرأة
وانا لي الانبياء
اه ما احلى السماء
حينما يطرد منها الانبياء
يا فلسطين اللصوص الرقباء